"روح القانون في الربينية اليهودية (التقليدية)"

تأليف هيروشي إيتشيكاوا (Hiroshi Ichikawa)

صادر عن مطبعة جامعة طوكيو 2004م

إيتسكو كاتسوماتا (Etsuko Katsumata)

شهدت السنوات الأخيرة اهتماماً كبيراً لدى الوسط الياباني بقضايا ومواضيع تتعلق باليهودية والشعب اليهودي ، وتعتبر مأساة التعذيب في المحرقة عموماً درساً تاريخياً مهماً لا يُنسى، يرافقه تيارٌ منتظمٌ للأعمال الأدبية والمرئية يلقى جماهير تقدره، وإن معاناة الشعب اليهودي(التي كثيراً ما تلقي بظلالها على التاريخ الأوربي) وأوضاعهم الحالية هي مدارات بحثٍ شائعةٍ بين العلماء اليابانيين، ويحظى الصراع الإسرائيلي الفلسطيني المستمر ، حيث يبدو أولئك الذين كانوا مضطَّهَدين في السابق يأخذون دور المضطَّهدين ، بتغطية صحفية يومية ، وكذلك بنقاشات في وسائل الإعلام المختلفة عن كتابات علمية وكتب دراسية وتقارير تتعلق بالمناطق التي تمزقها الحرب ، ويبدو أن الاهتمام العام باليهودية يزداد بشكلٍ ملحوظ في اليابان منذ الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر مع نقاشاتٍ حول الصِدام الخفي للمصالح بين الغرب الذي تقوده الولايات المتحدة و بين العالم العربي، وهذا يؤدي حتماً لظهزر وجهات نظر مسيحية مضادة لوجهات نظر إسلامية ، ويلفت الاهتمام من ناحية أخرى إلى علاقتهم بالدين الذي يُمارس في إسرائيل ، مما يدفع من جهة أخرى إلى دراسة واسعة لأعمال مفكرين يهود بارزين والاهتمام لها على نطاق واسع ، وخصوصاً سيغموند فرويد(Sigmund Freud) وجاك ديريدا(Jacques Derrida) وعمانوئيل ليفيناس(Emmanuel Levinas) وآخرين غيرهم.

وتسنّت لي الفرصة مرة، جمع قائمة منشورات يابانية حول مواضيع تتعلق بالدين اليهودي والناس ، ورغم أني تأثرت بمجرد عدد العناوين في تلك القائمة، إلا أنني لم أستطع أن أتخلص من الشعور بأن هناك شيئاً ما مفقوداً ، ولدى الدراسة، أدركت أن معظم الكتب كانت حول مواضيع تتعلق باليهودية ومعادة السامية والصراع الإسرائيلي الفلسطيني والفكر اليهودي، وليس عن اليهودية كدينٍ بحد ذاته ، وكشفت عن فقدان الاهتمام نسبياً بالعقيدة اليهودية من طرف الباحثين اليابانيين، والتي من المفترض أن تكون في قلب جميع المواضيع التي تغطيها تلك المطبوعات ، وبالفعل فقد تبين أنه أُجريت محاولات قليلة جداً من قبل علماء هذا البلد للدخول في صميم الدين الذي ساد هذا الشعب المطرود والمضطَّهَد، والذي هو أساس لبلدٍ يتصارع مع جيرانه ويشكل خلفية جليَّة ودقيقة للأعمال المشهورة لعظماء المفكرين اليهود ، ولكي نكون عادلين، يُظهر الباحثون اليابانيون في العصر الحاضر اهتماماً متنامياً في الربينية اليهودية (التقليدية)، ويعتبرونها أحد مفاتيح فهم السياق التاريخي للمسيحية كما كانت في أيام السيد المسيح والأناجيل ، ولا تزال الدراسات المنشورة هنا عن الطائفة المفترض أنها تشكل قوام دينٍ سيبقى حياً بعد فقدان الوطن هي عبارة عن

ترجمات أغلبها تبين أن موضوع البحث عن هذا الموضوع في هذا البلد لا يزال في بداية المرحلة.

وهذه هي الخلفية لإصدار كتاب *"روح القانون في الربينية اليهودية"*. إن الكاتب هيروشي إيتشيكاوا رائد ياباني في الأبحاث اليهودية ، اشتهر منذ فترة طويلة في طريقته المتعددة الأبعاد في استكشاف عالم اليهودية ، والكتاب في أساسه مجموعة لأعماله المنشورة مع إضافة قليلٍ من الملاحظات ، وعلاوة على كونه أول كتاب من تأليف كاتب ياباني يقدم فهماً لمجمل الدين اليهودي وفلسفته، فهو يبحث في جوهر اليهودية ويعالج بفاعلية الفجوة في البحث اليهودي في هذا البلد، مما يمثل بذاته إنجازاً رائدا أعتقد أنه يعطي الكتاب قيمة كبيرةً.

ويوضح البروفيسور إيتشيكاوا أن تركيزه في تأليف هذا الكتاب هو لتسليط الضوء على المميزات الأساسية لليهودية، التي تسهم في روح اليهودية، ولفحص تأثيرها على المؤسسات الاجتماعية والثقافية في المجتمع اليهودي ، لذا فإن كتاب *"روح القانون في الربينية اليهودية"* لا يدون تاريخ اليهودية ولا يحلل بشكل تجريبي ولا يبحث بشكل تقليدي في أي مظهر للدين, ولا يحاول أن يقدم تحليلاً مركزاً ومفصلاً في أي زمنٍ خاصٍ من التاريخ اليهودي. وهكذا لا يستفيد مباشرةً من البحث فيه من كان يبحث عن كتابٍ أو مرجع حول هذا الدين ، إن ما يفعله البروفسور إيتشيكاوا في هذا الكتاب هو انتقاء ظاهرةٍ معينةٍ وتطوراتٍ يمكن أن تعكس الجوهر الحقيقي لليهودية من أماكن وعصور وقطاعات مختلفة قائمة على اهتمامه ، وتحاول أن تقتفي بنية العقل اليهودي من خلال تلك الأمثلة ، وهذا عرضٌ طموحٌ ، وكما يبدو إن مثل هذه الدراسة الشجاعة التي تدعمها وجهة نظر واسعة هي وجه آخر قد ميز هذا العمل كما أعتقد.

ويخطر لي أن معظم الدراسات الأخيرة عن الأديان والوثائق التاريخية تفتقد إلى الطموح للدخول في النواة المشتركة للتجارب الدينية والاجتماعية والثقافية التي تتناولها ، لقد ضلل هاجس التنوع جماعة الباحثين ككل عن أهمية البحث في الخصائص المشتركة التي قد تكمن وراء كل شيء ، ويبدو هذا الاتجاه واضحاً بشكل خاص في دراسة اليهودية الربينية ، فقد اعتادت الطائفة اليهودية أن تُعتَبر مفتاح استيعاب اليهودية بمجملها، ولكن الفروقات الضخمة في تغيراتها الإقليمية وتسلسلها الزمني (والتي يجب أن يلقى التقديرَ اكتشافُها كإنجاز بحثٍ كبيرٍ يقرِّبنا أكثر فأكثر من الحقيقة) قد أدى بالعلماء في آخر المطاف إلى تحديد تركيزهم على أماكن وفترات زمنية ومظاهر معينة لكي يكونوا قادرين على وضع أهداف واضحة لجهودهم يمكن تحقيقها، وتتسبب اليوم في بيئة بحث مجزّأة.

ويبدو أن *"روح القانون في الربينية اليهودية"* يتحدى هذا التوجه بتركيزه الكلي ، فالكاتب يناقش بحرية المواضيع المتعلقة بأمكنة وعصور وحتى ديانات متنوّعة بما فيها الكتاب العبري واليهودية في الزمن التلمودي والصوفية اليهودية في العصور الوسطى, والحالة الراهنة للدراسات اليهودية في الولايات المتحدة والأمثلة المقتبسة على نحو ثابت من المسيحية والبوذية ، ويبدو أن هذه الدراسة تعكس إحساس الكاتب بالمسؤولية كباحثٍ يتناول أسئلة وجودية ، كما تعكس فهمه الذي تكوّن من تجربته

في العيش في الخارج، إن تلك المعرفة لثقافة المرء هي أساسية لتعليم دينٍ أجنبي لأبناء بلده ، وبقراءة هذا الكتاب، قد يشعر باحثو اليوم ذوو النظرة القصيرة من وقت لآخر بحافز للنظر بعيداً عن صفحاته إلى محاولة التقاط فكرة عما قد يكمن وراء جميع الظواهر التي يدرسونها، وربما حضور كبير يتجاوز جميع الحدود الدينية والثقافية ، سيقدم *"روح القانون في الربينية اليهودية"* لقرائه فرصةً للتفكير بمسؤولياتهم كعلماء وليسألوا أنفسهم من جديد ما الذي يبحثون عنه ولماذا؟

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام :

القسم الأول، بعنوان *"ولادة دين الشرائع"* ويتحرى كيف جاء إنشاء الربينية اليهودية كأساس لليهودية المعاصرة مع اهتمامٍ خاصٍ بموضوع الكيفية التي دافعت العقيدة اليهودية فيها عن قوامها ضد المسيحية ، وكيف انخرطت الأفكار والمثل التوراتية في النظام اليهودي. ويحقق الكاتب أيضاً كيف بنى التلمود (الذي يُعرَف هنا بأنّه أساس المعرفة المؤسساتية التي تدعم استقلال حكم القانون) المجتمع اليهودي.

القسم الثاني، *"إظهار روح التوراة"* يتناول تفسيرات التوراة كما يعبر عنها في التفسير والصلوات والتعليم الإلهي، مع التركيزِ على أهميتها بالنسبة لبقاء الجماعة اليهودية على قيد الحياة بعد فقدان الوطن.

القسم الثالث، *"التحدّيات في العصور الحديثة"* يصف كيف انهار نظام الاعتماد الكلي على التوراة المكتوبة والشفهية مع نشوء الصوفية والعقلانية الحديثة.

و يرى المرء لدى قراءة هذه الصفحات، صورة متماسكة لليهودية تبرز من الحقائق والأفكار المخططة والمدروسة ، ويعبّر جوهر العقيدة عن ذاته من خلال التفاسير المقتبسة في الكتاب كله ويحصل القارئ أيضاً على تجربةٍ في العالم اليهودي من خلال رسومات جميلة وصور فوتوغرافية تجمّل الكثير من الصفحات. وهناك طابعٌ أخر يميز كتاب *"روح القانون في الربينية اليهودية"* وهي نظرةٌ نادرةٌ بعين يابانية إلى كيفية ممارسة اليهود للدين بالضبط ، حيث يشارك الكاتب تجربته بالحضور المنتظم للقدّاس الصباحي في كنيس يهودي في إسرائيل.

لقد ذكّرني تقرير البروفيسور إيتشيكاوا بتجربتي في قداسات الصلاة اليهودية ، حيث رأيت كلَّ متعبِّدٍ يتلو الصلوات على منصته الخاصة، ويمتلئ كل المصلّين بالفرح عندما تفتح التوراة، وتستمر النقاشات الروحية عن كيفية وجوب قراءة التوراة ، لقد كان الجو مفعماً بالإثارة والبهجة ، ولا يوجد أي شيء مقدس في المكان، خلافاً لما يتوقعه معظم اليابانيين لدى زياراتهم للكنائس المسيحية ، لقد كان ذلك حقاً بمثابة فتح عينٍ لي ، وينقل *"روح القانون في الربينية اليهودية"* نفس ذلك الجو بنجاح وخصوصاً في الفصل السادس *"المعصية والمغفرة"* حيث دفعت شجاعة الكاتب إلى المغامرة بدخول كنيس يهودي والمواظبة على حضور قدّاس الصباح الباكر ، فأعطت أكلها في وصف حيّ ودقيق لطبيعة المكان.

إذاً ما هي الأفكار الأساسية لأجزاء الكتاب الثلاثة؟ إحداها يمكن أن تكون بالطبع تركيز الكاتب المتواصل على مفاهيم القانون والحرية ، فكما يبدأ الشكل المألوف للكتابة اليابانية بالحرف 'جي' (النفس) وهو يشير إلى 'جيو' (الحرية)، 'جيتشي' (الحكم الذاتي)، 'جيهاتسوتيكي إيشي' (الإرادة الخاصة)، 'جيغا' (الأنا).

يبدو اهتمام إيتشيكاوا الأساسي بأنه يكمن في مظاهر اليهودية تلك التي تبدو أنها تؤيّد إصرار الدين على مثالية الحرية ، ومن الملاحظ عموماً أن العقيدة اليهودية هي دين قوانين ووصايا لا تعد ولا تحصى، وهنالك صورةٌ دائمةٌ لليهود بأنهم شعبٌ مهووسٌ باتباع التوراة حرفياً ، ولدى اليهودية مجموعة شاملة من القوانين يجب على أعضائها اتباعها كل يوم، تتعلق بالطعام والصلاة على سبيل المثال ، وهناك بالطبع المشناح وهو مجموعة واسعة من القوانين والتلمود ومجموع الأبحاث والتعليقات على تلك القوانين والتفاسير للكتاب المقدس العبري ، وقد يبدو هذا التأكيد على الالتزام بالقوانين متناقضاً مع مثالية الحرية، ومع ذلك إذا كانت اليهودية حقاً نظاماً قاسياً وقمعياً ويركز على مجرد إبقاء القوانين فقد يظن المرء بأنها ما كان لها أبداً أن تبقى حيةً أكثر من2000 سنة بدون وطن ، وبالفعل يبدو أن الدين تنامى ورعى الإبداع وساند نفسه في توتّرٍ لطيفٍ بين الإفراط في التقييد القمعي وبين احترام الحرية ، وإني أفترض أن مثل هذا التوتر يخوّل اليهودية بأن تبقى على قيد الحياة وأن تفتن إيتشيكاوا كل هذه السنوات.

إن الحرية هي أمرٌ مسلّمٌ به بشكل واسع في المجتمعات الديمقراطية بالإضافة إلى اليابان، إنها حقيقة عالمية ، ومع ذلك ربما تكلّف حريةُ المرء حريات أشخاصٍ آخرين ، فالصراعات الدولية هي معارك بين الدول من أجل الحرية ، وهكذا فالحرية خاضعة للتقييد في جميع أنواع العلاقات ، فانطلاقاً من هذا، يبدو البحث عن روح اليهودية ذا قيمة، ويظهر أنه قائمٌ على توازنٍ بين القوانين والحرية، من أجل مبادئ قد تساعدنا على إيجاد طرقٍ نوازن بها حاجاتنا للحرية مع حاجات الآخرين لها، إنني واثق أن *"روح القانون في الربينية اليهودية"* سيزود قُرّاءه بمادة ممتازةٍ في تبصّر موضوع الحرية في سياق تجربتهم الخاصة.

تبدو الحرية في اليهودية مستمدّةٌ من تناقضها الظاهر مع القوانين ، وتدعم الأنظمة التي نمت بتفسيرات الكتب المقدسة وشُرّعت في التوراة الشفهية ، إن اهتمام الكاتب الكبير في التوراة الشفهية واضحٌ في أجزاءٍ مختلفة من الكتاب ويبدو أنه ثاني نقطة أساسية في هذا العمل ،لقد بدأ افتتان إيتشيكاوا باليهودية لدى التقائه مع تعبير *"موشي ربينو"* والتي تعني *"معلمنا موسى* ، أصبح الكاتب في حيرةٍ تجاه استخدام هذا العنوان في الأدب اليهودي عن رجلٍ يشار إليه في الكتاب المقدس أنه*"النبي"* فماذا يعني هذا؟ يعتقد الكاتب أن أجيالاً من أتباعه ينظرون إلى موسى على أنه النموذج المثالي، وشكّل هذا التطلّع جميع الأعراف والمؤسسات والمجتمع اليهودي وهي بمجملها تبوح بروح اليهودية.

وبالنسبة لي يبدو العنوان *"معلمنا موسى"* بأنه يعبر عن الروح الحقيقية لليهودية كدينٍ مبني على التوتر ما بين الحرية والقانون. إن أحد التفاسير التي يشير إليها الكاتب كدليلٍ على أن التوراة الشفهية بأكملها، بما فيها التعليقات الإضافية التي وضعها الحاخامات فيما بعد، كان موسى قد أوضحها (الصفحة 49). وهذا يلمح إلى أن أياً من الشروح والتطبيقات التي قد تستمدها الأجيال اللاحقة من اليهود فإن صحتها مستمدة سابقاً من حقيقة أن النبي قد عرض التوراة الشفهية بالكامل ، ورغم

أن هذا يضمن شرعية تفسيرهم للكتاب المقدس بأي طريقةٍ ترضيهم، فإن اليهود قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك ليطوروا مجموعة واسعة من القوانين خارج النص.
ويبدو أن ما يقود هذه الجهود هو إدراك أن اليهود أنفسهم مسؤولون عن اتباع حياةٍ كحياة موسى ، إن روح الحرية اليهودية قد تكون متأصلة في ضمّ الثقة المطلقة في حرية الناس في إيجاد التفسيرات وضبط النفس مع اتباع حياةٍ تتمثل بمعلمهم موسى. وبهذا يبدو من الطبيعي أن احترام اليهود للقانون يتماشى مع شعورهم بالحرية الفردية والاستقلال ، وربما يكون التعبير *"معلمنا موسى"* هو مفتاح فهم الدين كما يقترح الكاتب.

يناقش القسم الثالث من الكتاب *"الحرية والقانون"* كتاب سفر الخروج، والذي يسرد قصة نجاة موسى وشعبه في زمن الشدة وتسلّمه للتوراة ، وربما يعتبر هذا أهم جزء في *"روح القانون في الربينية اليهودية"*. وهنا يستعرض الكاتب بعض الأسئلة المألوفة عن سفر الخروج، بما فيها: لمَ كان على موسى وبني إسرائيل أن يتيهوا في الصحراء ويتدبروا أمرهم مع تحديات كثيرة قبل تسلُّم التوراة؟ ولماذا حدث تقديم التوراة في الأرض القفر؟. وتتضمن المواضيع الأخرى التي تناقش في الجزء الثالث منع عبادة الأوثان وشروح أغنية الأغاني التي تُعتبَر الكتاب الأكثر جدلاً في الكتاب المقدس، وأهمية ذكر مزايا الأجداد في الصلاة خلال أيام التوبة العشرة والمعنى الإلهي للكناية حول شخصٍ عاجزٍ.

لا يبحث هذا الكتاب الشروح اليهودية للكتب المقدسة بشكلٍ منتظم، ولكن بالأحرى يصف آلياتها وميزاتها وتاريخها بشكل لائق ويزود قراءه بوجهة نظر موسعة تقدمية عن الموضوع. ويعد *"روح القانون في الربينية اليهودية"* بتجربة قراءة ثرية وعميقة بسبب تركيزه الشديد، ويقدم نظرة نادرة إلى الشروح النصية من خلال أمثلة من مجالٍ كلي للمصادر التي تحتوي على قصص تفسيرية وروحانية.

وأريد أن اشير إلى النقطة الهامة الثالثة لهذا العمل، وهي افتتان الكاتب الدائم بنموذج التاريخ اليهودي الذي طرحه جيرشوم شكوليم (Gershom Scholem) والذي رسمت أعماله صورة مشرقة عن الصوفية اليهودية وأقامت أهمية هذا التقليد في سياق تاريخ الفكر اليهودي ، وبالطبع ستستمر هذه الإنجازات لتكون ذات علاقة وثيقة بالبحث اليهودي ، لقد تحرى شكوليم في قدرة اليهودية على تطورات أكثر في تعايشها مع كلٍّ من مظهرها المحافظ والمعياري ومظهرها الصوفي والمتأصّل ، وينبغي أن تطبق وجهة النظر هذه على دراسة تاريخ الديانات الأخرى وحضارات ومجتمعات وثقافات محددة وعلى التاريخ بشكل عام. ورغم أن بعض أعمال شكوليم في الصوفية اليهودية قد ترجمت إلى اليابانية إلا أنه لم يوجد أي محاولة لدراسة منهجه نفسه، وبكل إخلاص أتمنى أن يساعد *"روح القانون في الربينية اليهودية"* على تقديم وجهة نظر شكوليم الواسعة لجماهير أوسع في اليابان.

وإذا خرجنا عن الفضول الشخصي للبروفسور إيتشيكاوا، نرى أن هذا الكتاب يلتزم بعمليات فكر الكاتب من البداية وحتى النهاية، وهو يسأل ثمّ يجيب عن أسئلته ، وهذا ما يعطي بعض القرّاء شعوراً بالتحديق من بعيد على عالمٍ مُكتفٍ ذاتياً بدون إمكانيات للتحقق من صحة محتواه ، ويوضّح الكاتب من البداية أن هدفه ليس تقديم

تحليل تجريبي لأي من الظواهر التي يتناولها، ولكني سأكون مسروراً بأن أرى كيف يمكن التحقق من ملاحظاته وفرضياته باستخدام مصادر معتمدة إن كان ذلك ممكناً ، وهذا يتطلب بالطبع مشاركات لمختصين عديدين ومتنوعين ، فهذا الفكر يجعلني على درايةٍ مرةً أخرى بوسعة اهتمامات الكاتب وعمق نظره.